دراسة في الفن الشعبي

محنة السمر في دار الانتقام

بقلم شاكر حسن سعيد

(١) القسم الأول : مقدمة

كثيراً ما كان يظهر امامنا فوق صهوة جواده مقنعاً ومن احدى عينيه يقدح الشرر . وحينما كنا بعد نأوي الى احضان امهاتنا، كان ابطال الحكايات يجلون لفترات وجيزة محله ، فيلوحون من خلال ظلمة الغرف الاسطورية المفعمة بروائح المسك وهم ينتزعون النور من قلب الليل. او يدخلون الكهف بقلوب لا تلين ، ويخرجون بانوف شامخة ووجوه قاسية . وكانوا يتقنعون للتو بقناع كقناعه ويتدرعون بلأمة كلامته . وذات يوم كنت اكتشف رأسي وانا مغمض الجفنين ورائحة الرطوبة العفنة ، واصابع امي وعمارات غطائي الصوفي . وكان كل ما حولي يسلمني الى خدر لذيذ ، ولم اك اشعر بهذا الظمأ الراهن لفقدان الاحساس . والدموع لم تكن لتتجمد في مآقيّ بعد ، وعلى حين غرة كان هو يصدمني بضحكة رنانة صافية فتبرز اسنانه لامعة وخلالها نابه النحاسية ووجهه الاسمر ، فيفيض عن وجهي اللون الوردي ويسرع قلبي الطفولي بالخفقان . وكان مع ذلك يختفي بغتة فأفتقده ، هو هو اللعين بعينه مقنعاً بالحمرة وفي كفه سيف اقتضى الحال ان يكون مقوساً ، وما وراء ظهره الدرقة النحاسية المرصعة بالمسامير .

وفي ايام السبايا (١) كنت استلم حزيناً الى رثاء الرجال ونواح النساء من بعيد ، وكان يختلط امامي الحلم باليقظة واللاشعور بالشعور. فهاهنا سوف يستحيل هو ايضاً الى الم دافق جاثم سرمدي يرن بسلاسل الندم وينتشج بسواد الاحداق . ومن خلال هذا كله سيظل ايضاً حزيناً مرعباً في آن واحد ، ويسير حتى في موكب النعش حيث الجند تحمل بين رؤوس الرجال مبتور الرأس ملطخ الكفن بالدماء ، وفوقه الحمام الآمن المطمئن .

واذكر مرة اني شهدت ما وراء هذا الجدث اسداً محمولاً في عربة يحثو التراب على رأسه ، وسلسلة من الاجداث محمولة ملطخة الاكفان مبتورة الرؤوس . وكانت اقدامها القذرة ترسم في الفضاء ما يشبه اذناب الاسماك ، واصابعها تستدير بشكل يشبه الهلال المطعون . وكان هو لا يزال يطل علي من كل شيء . ولم ينج منه جسد ولا جدث . كان بعينه مغامراً وحشاً حزيناً لا يستحق الرثاء ولو من اجل ما سيقذف به من حجارة ولعنات ، ويقال ان شمراً من الممثلين لاقى حتفه بغتة من يد احد المتزمتين ، فمات الانسان الذي يتقمصه تاركاً زوجاً وبضعة اطفال دونما مورد مالي . ولكن صورته لم تطمس . ولكأني به الآن يخب مجدداً على صهوة حصانه ، وفي مقدمة بيضته ريشة تطاول الفضاء الذي تسبح فيه .

وهكذا كان يتغلغل في كل شيء . فهو من ابطال (اقاصيص الجان) و (المدن المسحورة) وهو من ابطال مسرحية يوم في عاشوراء ولكنه ايضا فلاح بسيط رضي ان يمثل دوره على المسرح بثمن بخس على ان يضع في حسابه كل المصادفات المحتملة الوقوع. وذات امسية كئيبة سيهجم على هذا الرجل المطمئن متزمت وبيده (قامة) يهوي بها على رأسه دونما سبب . ودونما سبب ايضا ستتدحرج الدرقة على الارض وستصطدم بحجارة الطريق وتزهق روح الانسان من جديد على الارض التي لم تذق ماء المطر منذ فصل الخريف.

ولكن هذا المارد الخرافي ، الذي كتب عليه اللعنة الازلية ، والذي ما زال يتجسد في بعض الفلاحين من ريف العراق الوسطي والجنوبي هو نفسه الذي سيظل بامكانه ان يتجسد في الآلهة: فمنذ اعماق التاريخ و (الشمر) يقف وجها لوجه امام ضحاياه . كانت مغامرات (جلجامش) (١) مثلاً تقتضي ان يقتل هذا المغامر (خمبابا) غول غابة الارز . وهو كائن قبيح الصورة يفتك بالآمنين . (والشمر هنا ضعيف الملامح) ، غير ان نزول (انكيدو)

---

(١) في عشرة الايام الاولى من محرم للسنة الهجرية تقام مراسيم الندم والبكاء على شهداء معركة كربلاء . و (السبايا) اسم يطلق على المواكب التي سير ليلاً لهذا الغرض في العراق .

(١) الاشارة هنا الى الملحمة السومرية [ملحمة جلجامش] وملخصها : ان (جلجامش) بطل مدينة (ارن) وجبارها ومغامرها يبني اسوار مدينته ومعبدها ثم يستبد بسكانها فتبعث له الالهة غريما هو (انكيدو) عاش اول الامر في (البريه) . وبعد معركة حامية بين الغريمين (جلجامش) و (انكيدو) ينتصر (جلجامش) الا انه يفوز مع ذلك بصداقة (انكيدو) ومن ثم يغامر كلا البطلين الصديقين معاً عدة مغامرات . ومنها المغامرة التي يقتلان خلالها (خمبابا) غول غابة الارز ، ويدعى ايضا هواوا الذي عينه الاله (انليل) حارسا لتلك الغابة . وبعد ذلك يفتك الصديقان (بثور السماء) على الرغم من رغبة الهة الحب (عشتار) وهي التي بلغ من جبروتها ان هددت اباها الإله (آنو) بانه اذا لم يخلق لها ثور السماء لتحارب بواسطته (جلجامش) فسوف تحطم باب (العالم السفلي) ، وتدعو الاموات الى عالم الاحياء . وتستمر الملحمة في سرد رحلة (جلجامش) الرهيبة الى جده (اتونوبشتم) او (نوح العراق) وهو الذي حمله الفلك اثناء الطوفان المشهور المذكور في الكتب السماوية . فبعد ان مرض (انكيدو) جزاء قتله (خمبابا) و (ثور السماء) وبعد ان مات يحزن (جلجامش) ثم يتجشم السفر ليرى جده (اتونوبشتم) وهكذا يغامر بعبور جبال (ماشو) ويمر (بالرجل العقرب) وزوجته ويعبر (بحر الموت) حتى يصل اخيراً . وهناك يستمع الى قصة الطوفان التي ينال بسببها (اتونوبشتم) الخلود . فيحاول (جلجامش) بدوره الحصول على الخلود ويحصل عليه بعد ان يرشده اليه جده نفسه . الا ان بطلنا يفقد هذا السر (وهو نبات بحري) ذلك انه حينما اخذته سنة من النوم في طريق عودته عند ساحل غدير تسللت افعى فأكلت النبات (ولهذا السبب فهي تجدد شبابها بان تخلع جلدها) . وهنا يستسلم جلجامش نهائياً للقضاء والقدر ويرضى بما هو مقدر على البشر فيعود الى مدينته ويبدأ بانجاز اصلاحاته. [راجع مجلة سومر الجزء (١) سنة ١٩٥٠ ملحمة جلجامش : طه باقر وبشير فرنسيس . ص ٤٢ — ٨٠] .

الى العالم السفلي يقذف بنا وجهاً لوجه امام شمر من نوع آخر ، فهو ذلك الجلاد الذي يحكم مملكة الاموات وله حاشيته . هو آلة الموت وآلهته . وسنرى ان في هذه المملكة الدفينة من العالم الكوني السفلي او ارض (اريشكيكال) التي يأوي اليها طريقاً لا رجعة فيه [في الحكايات درب الصد ما رد] وحيث طعام شعبها التراب والطين ولباسه ريش الطيور . في هذا العالم المائل والغائب في آن واحد ، يلوح الـ (شمر) بتصدر القاعة بهيئة (ام ننازو) او بهيئة (نرجال) ملك ذلك العالم السالب. وازاءهم جميعاً يكاد ان يذهب (انكيدو) ضحية بل ان تذهب الالهة (عشتار) نفسها . وهذا الشمر السومري او البابلي سرعان ما يستحيل الى آخر اشوري . ذلك ان (امايا) الامير الاشوري المغامر يتوق الى زيارة العالم السفلي وحينئذ سيعاني هناك ضروب العذاب (١) .

فالحضارات الاولى اشارها اذن . بعيونها العور ووجوهها المقنعة . كانت لها اشارها تقسو اشد القسوة وتفتك بالناس الآمنين ، ومع ذلك فقد كانت من الالهة . بيد ان هذا لا ينفي بل يؤكد ان ثمة (اشماراً) آدميين كانوا ما يفتأون يفتكون بعد كل معركة بسكان المدينة المدحورة وبرقاب اسراهم فتكاً ذريعاً سرعان ما يصبح في اذهان مؤلفي الاساطير المجهولين من صور ذلك العالم السفلي - عالم الموت والعذاب .

كان الشمر اذن على ضحكته الذهبية يتطي صهوة جواده ويجلد الناس بسياط لا يرونها ، وحينئذ ستفتح في ظهور الابرياء جداول من الدماء ، ويختلط الجلد الاسمر الداكن بخطوط حمراء ترتع فيها ديدان بحجم الخناصر . وخلال ذلك ، خلال هذه اللعنة التي يتقمصها انسان لا يعيش بغير ضمائر ضحاياه ينتصب البريء المتمرد ، فهو منذ البداية لا يبدو انه صائر الى الاستسلام ، لأن (انكيدو) على الرغم من نصيحة (جلجامش) اياه بضرورة عدم التطيب او مناوأة سكان العالم السفلي ، يرفض نصائح صديقه دونما عذر ، ويخالف تقاليد شعب (نرجال) فيزعج الاموات وملوكهم . اذ مهما سيجلد الشمر هناك ضحاياه ، فالشهيد ابداً مائل امامه . وان (انكيدو) ليبدو لي الآن بصدره العريض وقامته المديدة ، قادراً على تناول السماء ونسف مملكة الاموات ، ذلك انه الاداة التي تحدت (خمبابا) وقتلت (ثور السماء) واهانت الالهة (عشتار) نفسها .

★

منذ الحضارات الاولى والشمر يخلد في التاريخ . وهو لا ينى يجد له في الظلام اجساد بعض الابرياء ، يأوي اليها او يتسرب من رأس الى آخر كما تتسرب افكار الناس وعقائدهم عبر الاجيال . ولكنه كان يتشكل احياناً بوضوح لتحل لعنته في اجساد بعض التعساء ، وما ان تنتهي اعمارهم حتى يكونوا قد خلدوا في تاريخ الخرافة والاسطورة كما يخلد اليوم انفجار قنبلة (هيروشيما) في الرقوق الصوتية المدونة .

وحينما كان اسم (شمر) [٢] يعترضني ، كنت أقرنه اول الامر بملامح شخص اسمر البشرة ينجح ممثلو (عاشوراء) في التشبه به الى حد بعيد . ثم لا يفتأ يتلاشى شيئاً فشيئاً ويتبدد في حيزه من الفضاء كما تتبدد قطرة الندى تحت ضوء شمس الصباح . على انه حقيقةً يقترن بشخص عاش في نهاية القرن الاول الهجري ، وكان على شيء من التجلد والتمرد ليتحمل وزر مقتل الحسين على عاتقيه . وعلى عاتقيه ايضاً سوف تتراكم احقاد ملايين المسلمين ما بين عربي وفارسي وهندي وتركستاني ومغربي وزنجي ، لتشيد له تمثالاً لارادة الباطل الغاشمة . ولقد تحدثنا كتب التاريخ احاديث تثلب زمرة من المحاربين اصطادوا بكل قحة بعض المسلمين من عائلة النبي محمد (كعمر ابن سعد) قائد الحملة و (شمر ذي الجوشن) قائد الميمنة و (عمرو بن سعد) قاتل (القاسم بن الحسين) و (عبد الله بن عقبة) قاتل (ابي بكر بن الحسن) و (عمرو بن الحجاج) قائد حامية مورد الماء ، وسواهم . غير ان لعنة الاسطورة تستقر اخيراً على قتلة الحسين بن علي بالذات امثال (مالك بن بشر) و (زرعة بن شريك) و (سنان بن اوس) وهو الذي طعنه و (حولى بن يزيد) و (شبل بن يزيد) . وهما اللذان حزّا رأسه . اما (شمر) فهو الملوم الاول لانه أغرى (عبيد الله بن زياد) والي الكوفة آنذاك بالاسراع في الامر فكان ان أنفذه الى (سعد بن عمر) ليشرع بالمذبحة ، كما اوفده الى الخليفة (يزيد بن معاوية) مع رأس الحسين . [١]

كان مقتل الحسين اول طعنة لفكرة الفروسية في الاسلام ، غير ان (شمر) كان بمثابة اول مقارع لذلك الانسان الكامل كيما يتجرأ ويتحمل وزر حز رأسه . وفي ضربة واحدة انهارت اول لبنة من البناء . وكما عملت يد النبي (محمد) قبل اقل من قرن مضى على مقتل حفيده من ابنته ، في انجاز حضارة المجتمع الزراعي الرعوي من ساحل الجزيرة العربية الغربي ، عملت يد (شمر) في تحدي أعلى سلطة اخلاقية - روحية للمجتمع الاموي .

والواقع ان مقتل الحسين ليس الحادث الاول من نوعه . فقد سبقه اغتيال (عمر بن الخطاب) و (علي بن ابي طالب) ، غير ان ذلك الموقف البطولي الذي وقفه الحسين ، وهو الوريث الروحي للنبي نفسه وحفيد له كان يجب ألا يهدر لدى شيعة (علي) . (فعمر بن الخطاب) هو الخليفة المسلم القتيل و (علي ابن ابي طالب) هو الانسان الكامل القتيل ، لكن (الحسين)

(١) (اسطورة النزول الى العالم السفلي) من الادب السومري ايضاً. راجع مجلة سومر عدد (٢) سنة ١٩٥٠ ص ١٧٩-١٨٦ .

(٢) اسمه الحقيقي (شرحبيل بن عمرو بن معاوية من آل الوحيد من بني عامر) .

(١) راجع للامام بمحنة العلويين في كربلاء (الاخبار الطوال) : الدينوري ص ٢٢٧ - ٢٣١ . وللشيعة كتب مفصلة وادب خاص بما اصاب العلويين مدون فيما يسمى بكتب (المقاتل) .

هو الفارس المسلم سليل علي والنبي محمد معاً . ومن هنا فليس مقتله بالحادث الطارىء . ولا بد ان يكون قاتله من الطراز الذي سيخلده التاريخ . وهذا ما حدث فعلاً ، فكان الثمن الوحيد الذي لم يبخس (الشمر) فعلته .

ومهما قيل او ما سيقال عن هذه المأساة التي تبدأ اول مسرحية في الحضارة الاسلامية فان ابطالها الذين لا يتغيرون يتبوأون على مر الدهر مكاناتهم . وإني لأعجب الآن من ذلك الجندي الأموي ومن عناده الذي دفع به الى تحمل كل لعنات التاريخ الشعبي من اجل طعنة خنجر لجسد اثخنته الجراح وفتحت في اديمه المدى والسيوف .

ولا بد ان كل ملائكة الله – إن كان ثمة ملائكة – لم يكونوا ليوقفوا اندفاع تلك النفس العارمة وتدفقها . فلسوف تخترم من بينهم قبضة شقق جلدها سعة المدى الحراري لمناخ الفرات الأوسط ، وأثخن منها تراكم ذرات العواصف الرملية في مسامها . فهذا هو (نرجال) يتقمص في العصر الأموي جسد (الجندي) ليبدو بشكله المرعب جباراً بقتل زمرة حيل ما بينها وبين الماء ، مثلما حُظر عليها الرجوع الى الحجاز والنجاة من الموت المحتم ، لأن تثبيت دعائم العرش الأموي كان يقتضي ذلك ويبرره .

وهكذا . (فشمر ذو الجوشن) يعيد لنا الآن مأساة العالم السفلي من الأساطير السومرية ، وسنرى انه يعيد لنا ايضاً مأساة المعذبين في الجحيم من الأساطير الدينية الاسلامية .

فحينما تحدثنا الكتب الدينية عن (عروج) النبي (محمد) الى السماء كانت مناظر العذاب السرمدي تنسج لنا من خلال ذلك اقاصيص لا شكل لها عن ابطال يتعذبون في الجحيم لأن (شمراً) مجهولاً كان يسلخ جلودهم او يشويها . ولكم صور لي ذلك الورق الاسمر – الاصفر رؤوساً بلا اجسام كانت معلقة من جدائلها او ألسنتها ، أو أجساماً بلا رؤوس كانت معلقة من اثدائها والعقارب تلسعها ! لكم كانت مناظر (الضحايا) تعرض بيسر وهي تحتج بشدة على قاتلها المختفي !؟ فالمعراج هو السفر الذي يعيد لنا مأساة المتمردين في العالم الارضي تحت وطأة سوط الشمر السماوي (ورأيت رجالاً ونساءً مصفدين باصفاد من نار وجباههم قد اسودت والحيات مطوقات باعناقهم تلدغهم فتهري لحومهم ثم يعودون خلقاً جديداً فقلت : يا اخي يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله) . فليس من الضروري اذن ان يكون هؤلاء المتمردون جميعاً (كالحسين) ليتقمصوا شخص الشهيد المتمرد . بل هم على العكس تمردوا فحسب وقلّ من ظل حتى النهاية يرفض الايمان بغريمه . ومع ذلك فان ما يحيلهم امامنا الى شهداء ابرياء هو قسوة اليد التي تظل تلطم جباههم وتعاقبهم . فهؤلاء المذنبون يتعذبون بين يدي القارىء – وهو الذي ولج عالم الكتاب السحري وتعوّد على جوه بما قرأ فيه عن اعداد الملائكة وطبقات السماء – اجل يتعذبون بين يديه وتحت سمعه وبصره (مجازاً) بسياط لا يرونها . ويقال ان (مالك خازن النار) هو الموكل بهم ، غير ان مالكاً هذا لا يوازي الشمر الحقيقي فهو يلبس قناعاً يخفيه عن اعين الناس وهو لا يرد السلام بتاتاً الا اذا عرف ان المسلم عليه هو النبي محمد [٢] . ونحن لا يمكن ان نتصوره بتاتاً في حين ان (ذا الجوشن) كان ولا بد يعيش تحت شمس الظهيرة من تموز ورمال الصحراء تضرب وجهه وحصانه يصهل تحته ، لكي يضرب اخيراً الضربة القاضية . اما المعذبون في جهنم ، هؤلاء الذين يعرضون بكل اهانة بين يدي القارىء فلم يكونوا ليقعوا على اشمارهم البتة . فهم يحسون الألم ولا يرون البعوضة ويتلقون الصفعة ولا يرون الكف . وهنا يكمن عذابهم الحقيقي .

★

اجل كان (شمر) هو الأداة المتجلدة لمقتل الحسين وذويه . وهو نفسه يعترف بهذا بكل فخر . (غدونا اليهم عند شروق الشمس فاحطنا بهم من كل جانب . فلما اخذت السيوف مأخذها ، جعلوا يلوذون الى غير وزر . . . فهاتيك اجسادهم مجردة وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة . تسفى عليهم الرياح ، زوارهم العقبان ووفودهم الرخم) [٣] . فلا بد إذن ان يمتحن العدل بالباطل . ولا بد للضحية من جلاد . ولقد كان (شمر) هنا هو الجلاد و (الحسين) ضحيته ولكن ثمة ضحايا بلا جلادين وهذا هو افدح أنواعها .

كنت اشهد مصرع بعض الخراف في احد المذابح فالقصاب يضع الشفرة في محلها من العنق . وبعد عدة اختلاجات ونزيف من الدماء يسكن الجسد الحي ويهدأ الى الابد . ولكن

(١) الاسراء والمعراج – للامام ابن عباس ص ٢٠
(٢) المرجع نفسه ص ١٧
(٣) الاخبار الطوال – الدينوري ص ٢٣٢ . وهذا هو نص كلام (شمر) للخليفة (يزيد) حينما وفد اليه مع رأس الحسين .

مرأى الجثث وهي معلقة في واجهات الدكاكين كان يهيني حتى النخاع . كنت اشهد الضحية فحسب ، اما القصاب فهولا يبدو امامي وقتئذ إلا في اهاب طفل رضيع . لقد ذهب ذات مساء ذلك الجلاد الى ضاحية المدينة ، وما بين روائح الدماء المتعفنة ونباح الكلاب وسكون الامسية الكئيبة استمر يصرع بعض الكائنات الوديعة . وفي صباح اليوم التالي وبعد ان نام نوماً هادئاً جاء الى دكانه يبيع اللحوم بكل براءة . وحينما يجيء دور الانسان الاعزل ، ولا بد له من شراء نصيبه من اللحم ، فسوف يحظى بالضحية وجلادها معاً . ولكن حضور الضحية كان ما يزال امامه بأديمها ، اما الجلاد فقد تلاشى منذ مساء اليوم المنصرم . وهكذا ، فمحنة (الشمر) تتجسد في اهاب الذبائح من الحيوان كما تجسدت من قبل في نظائرها من الانسان، إلا ان الشمر هذه المرة هو (القصاب) وليس (الجندي) او (الاله) او (الملك) . فالمحنة إذن هي هي كما تجسدت في (اسطورة المعراج) . إلا ان ما يميز مرأى الجثث في دكان القصاب هو نفسه الذي يميز صور العذاب في الجحيم ، فالابرياء هناك يساقون الى المجزرة بعصيّ لا ترى . ولعل ثمة يداً شفافة تدفع بهم الى العذاب كما يدفع إصبع السبابة جندي الشطرنج على الرقعة . فالجزار في دكانه غائب في حين تتقطع اوصال الذبيحة بكل بساطة لتملأ اجواف الناس بعد عدة ساعات من حياة آلية متواصلة .

★

(خمابا) غول غابة الارز . صورة (شمر) في ايام السبايا. (نوجال) وسكان العالم السفلي . (شمر بن ذي الجوشن) بطل مذبحة كربلاء . (مالك خازن النار) والملائكة المعذبون لاهل الجحيم : هؤلاء جميعهم (اشمار) لـ (شهداء) كانوا ينتهون وهم يتلوون من الالم ، وحولهم ألسنة من اللهيب الازرق المخضر . ولكن قطعة خشب منحوت بمهارة لا تكاد تعرف هذه اليد التي تلهو بها على رقعة ذات اربعة وستين مربعاً . هذه اليد الغاشمة .

★

(٢) القسم الثاني : نقد اللوحة

وإزاء [دار الانتقام] [1] كنت استعرض كل تلك الحقبة من تاريخ الحياة النفسية للمجتمع الاسلامي في بلاد ما بين النهرين ، فالمسرح واحد إلا ان الروايات متنوعة . والأبطال انفسهم إلا ان الممثلين متبدلون . تلوح (محكمة تفتيش) فيها متقنة إذ يذبح قتلة (الحسين) وذووه بمهارة وسعة خيال . فاسطورة (المعراج) إذن مدونة هنا بفصولها (الحمر ـ السود) على ورق رخيص تنجلي عليه كل الانفعالات الانسانية المعذبة. غير ان الشمر هنا لا يظهر منه سوى جانبه السلبي. فهو لا يلوح في اللوحة كما تقتضي المأساة نذلاً جباراً بقتل الحسين ، (فهذا ما لم يصور في الصور الشعبية). ولكنه يلوح في محنته موضوعاً في إناء واسع مليء بالماء الساخن وهو يصرخ ورأسه مشقوق من يافوخه . ومع ذلك فالشمر يهمل عمداً في احدى زوايا المعتقل زيادة في انتقاصه كيما يعذب بشدة . ويتولى تعذيبه اربع جنود يحملون العصي وينظرون آلامه ببرود . وهنا ستنعكس الآية فالشمر الآن هو (الضحية) من الناحية العملية وجنود الانتقام هم (الاشمار) . وهذا بالضبط ما سيعيد الاشياء الى وضعها الطبيعي. ولكن هؤلاء الجنود اذ يقومون بكل ايجابية بازهاق ارواح المتمردين يبدون وهم اكثر براءة في نفوس المتفرجين من اطفال في باحة ميتم منعزل . على حين تبدو الضحايا وهي اشد خبثاً من ادارة شركة بترول . وهكذا فلم تعن تضحية (المتمرد الباطل) في تعقبه . اما جندي الانتقام فليس بوسعه الا ان يتماسك حتى النهاية .

بيد ان اللوحة لا تطفح بعذاب (شمر) وحده . وان كان عذابه البذرة التي ستنمو بين جنبات اللوحة . فهناك اربعة اشمار آخرون في الصف الاول (السفلي) ، يعذبون بكل سعة خيال . واولهم (وهو مجهول : لعله شبل بن يزيد) يلقم بالجمر . والثاني وهو (حولى بن يزيد) [يدعى في اللوحة بحولى] مقيد اليدين يتحمل عذابه بصبر ، اذ يغرز في قحفه وتد من الحديد الساخن بضربات شديدة من مطرقة . في حين يتمخط انفه دماً على ركبتيه (وهذا يذكرنا بالنساء الصم البكم في الجحيم اللواتي يعذبن في تابوت من نار يخرج من دماغهن ومثل الدهن من مناخيرهن وابدانهن تتقطع من الجذام والبرص [1] . بيد ان (منفى بن مرة) لا يكاد يطيق عذابه فهو ملقى على ظهره وصدره يبضع بالمقص قطعة قطعة . اما الاخير فهو (مجدل بن سليم) وسحنته كسحنة (شمر) الا انه يسمر هنا الى جذع شجرة . فالدم ينزف من مشطي قدميه وتغرز في صدره الشموع المضيئة .

(١) انظر اللوحة . (١٢ × ١٥ انج) ألوان مطبعية . تصوير (المقصود) .

(١) من تفاصيل (الاسراء والمعراج) لابن عباس ص ١٩ .

لست ادري اية رغبة او نزوة سولت لمعذبيه هذا العذاب . ولكن تصوراً شعرياً ولا ريب هو الذي املى على الرسام مثل هذا الوضع الانتقامي الشاذ .

وفي الصف الثاني من المذبحة يلوح (سعد بن عمر) وهو يُذبح ذبح الشاة . وامامه (حولى بن يزيد) نظيره في الشيخوخة يفزع الى ربه من هول المشهد . وما وراءه زوجته المؤمنة تعزى باعدامه . وفي وسط اللوحة يتجلى مقتل (زجر بن عامر) تقطيعاً بالفأس ، حيث توضع اطرافه عضواً عضواً على خشبة معدة لكي تفرم كما تفرم تماماً عظام الذبيحة على سندان الجزار.

وفي اللوحة مشهدان آخران لهما قيمة منظورية هامة . فثمة (سنان بن يزيد) و (حرمله) وهما من ذوي السحنات الشيطانية ، يربط كل منهما الى جذع نخلة ليطعن احدهما بالحراب ويرمي ثانيهما بالنشاب . ذلك ان بضعة جنود ينظرون من الجانب وهم الذين يؤدون مهمتهم بنظام ملحوظ . اما في الصف الثالث فيظهر (الحسين) نفسه في شخص (المختار الثقفي) والى يمينه (ابراهيم) و (مالك) . واولهما هو ابراهيم بن الاشتر قائد ميمنة جيش (المختار) بطل حملة الانتقام من قتلة الحسين . وليلاحظ هنا ان الرسام الشعبي يرسم لنا وضعية شائعة في الرسوم الدينية . او منظر امير المؤمنين وولديه [اي علي بن ابي طالب والى جواره الحسن والحسين] فلا بد وانه بصورة لا شعورية يشهد آل البيت خلال الوضعية التي يرسمون بها على مذبحة الانتقام . فليس المختار في اللوحة سوى (الحسين بن علي) وليس (ابراهيم) و (مالك) سوى بعض اولاده . وهكذا ، فاللوحة هنا لا تمثل واقعاً طبيعياً ولكنها تمثل واقعاً حيوياً (من الحياة) . فليس ضرورياً ان يتقيد الرسام الحيوي بالطبيعة كما انه لن يجد الناظر في دار الانتقام حادثة تاريخية ولا شعبية معينة. ولكن بامكانه ان يجد هذا الحقد الفياض نحو (الجلاد) ، وهذا الانتصار الوثني (للشهيد) . وهما من احقاد وانتصارات سبق ان الهبت في بلاد الشرق الاوسط ولا تزال نفوساً وعواطف لا يعرف لها قرار. من السحر اذن ان يعبر الرسام عن عواطفه وعواطف اقرانه من الجمهور المتشيع ، مثل هذا التعبير العميق . فههنا فضلاً عن (حادثة) متبلورة في قلب قضية شرعية الحكم العلوي ، مشاعر ولا مشاعر جمهور يحلم بضروب وسائل الانتقام لأن حفنة من

الجلادين أراقوا دماء بضعة ضحايا . ومن صميم هذا المنطق ان يكون الشهيد نفسه اكثر حضوراً من الجلاد . (فالمختار) رمز الحسين بسحنته وجلسته وكبر حجمه يملك الناظر بيسر . في حين يهمل الشمر في احدى زوايا اللوحة كيما يضيع .

ومن متممات المأساة رهط الاسرى . يلوحون وهم يربطون بالسلاسل من اعناقهم ، وسحناتهم تعبر بدقة عن الذل والأسى . في حين يختتم المشهد مجلس المتفرجين في الصف الأخير (العلوي) . وجلهم من آل البيت في الطابق الثاني من الساحة وهم ما بين متشف وجازع وحاقد .

وثمة قيم حيوية تؤلف اهمية اللوحة من الناحيتين (التعبيرية) و (الحيوية) . فنحن نعلم انه في ظرف جيل قد تحدث من الأحداث ما يسمم نفسية حضارة بأكملها . ولقد كانت مآسي العلويين تمثل هذا التسمم ، هذا الجانب الكئيب من الجيلين الاموي والعباسي . ومن هنا فاللوحة تعبير عن القسوة والوحشية التي كانت تنال منالها من نفوس رجال الحكم آنئذ « إزاء فرقة دينية ذات رأي سياسيّ معارض في نظرية الخلافة [1] ولكن شمول الحادثة الانسانية والحيوية فيها هو الذي ينسحب حتى اسطورة النزول الى العالم السفلي كما يصل حتى حوادث الارهاب في سجون القرن العشرين . فاللوحة ههنا اشبه شيء بذلك العقد السحري الذي يمتلك القدرة على الشفاء من الامراض وتحقيق الآمال او دفن الاحقاد او سلب العقول . في حين لا يتحتم على العرافة ان تؤمن بسحر قلادتها لكي تفعل مفعولها . فالرسام الشعبي لم يكن ليضمّن صورته كل هذه الأعباء ولكنه يعبر بالفطرة عن مأساة ميثولوجية وانسانية معاً . هو يرسم عالم الرعب والوحشية وهو يرسم كيف ان (مهزلة) سرمدية تضع الضحية والجلاد على صعيد واحد . كما انه يرسم صراعاً رهيباً لعله كان يشهده في نفسه قبل ان يشهده في لوحته . ولكنه لا يعلم ولا شك لماذا كان يرسم كل هذا . ولماذا سيشعر بالراحة والاسترخاء حينما ينجز رسم تلك الأشغال ويضع تلك الألوان . ثم إنه لا يدرك سوى انه ينقل معالم اسطورة متناقلة يؤمن بها وينقلها بأمانة عن صفحة خياله الخصب .

وهنا في هذه اللوحة التي لا يعزى تأليفها الى شخصية معينة ، لانها سواء في موضوعها ام عواطفها ام افكارها ام مغزاها من تأليف الاجيال المتعاقبة . في هذه الصورة بالذات يطل علينا الفنان الرسام بكل قواه ناطقاً معبراً عن صميم الحياة . ولكنها ليست تلك الحياة التي تلبس حادثة معينة بل حادثة عامة طبخت ونضجت خلال التاريخ . فهي ليست قميصاً وإنما قطعة رداء (كبردة) النبي (محمد) يقتنيها الحاكم او السلطان . ولكنها مع ذلك ملك ستة قرون متعاقبة . وان في اهابها إذن لعشرات الملوك والسلاطين . (فدار الانتقام) التي ابحثها الآن بعنوان (محنة الشمر) هي في الواقع لا اساس لها من الصحة (كحادثة تصويرية) . اما من الناحية التأريخية فان الحملة التي شنها المختار الثقفي للتنكيل باقطاب معركة كربلاء من جيش (عبيدالله بن زياد) ومنهم (ابن زياد) هذا نفسه ، لم تتم كمحكمة تفتيش يرسمها الرسام الشعبي ، على الرغم من ان المختار نفسه كما اتضح اخيراً ، كان يتخذ من ثأر الحسين ذريعة لتقوية مركزه . لكن هذه اللوحة أكثر واقعية من شعوري بجسدي وأقرب إلي من اهدابي ، لأنها تمتد خلال الزمن والمكان كطبيعة هذه الكائنات التي تحوطني . فهي ليست حاضرة امامي فحسب ، ولكنها حاضرة في العالم نفسه . ليست (حادثة) يومية عابرة ولكنها (قضية) اسطورية خالدة . إنها مشكلة (صراع) وليست (شكوى) . ذلك لانها تضج بذعر (الانسانية) خلال الانسان و (تحتج) بلسان الكون على الكائن السلبي .

إلا ان حيوية اللوحة منوطة بالعناصر التشكيلية فيها . فهي لا تعبر عن عواطف معينة مقصودة ، تطفح بالتشفي والانتقام ، ولكنها تعود من طرف خفي بعناصر اللوحة الاخرى لتوثي هؤلاء الجلادين بوسائل تعذيبهم . فهي تسلبهم آثامهم بما تطرحه من مشاكل نفسية خليطة تقتضي جمود سحنات الجنود المعذبين وخنوع القاضي لأرادة السلطة المنتقمة كما تقتضي دعر الاسرى وتألم المعذبين او تضرع بعضهم . فالقاضي في اللوحة مثلاً انسان ذرف على الثمانين يتألم من المذبحة ولكنه يبررها لأنه آلة جارحة بأيد شفافة لا يقوى على عصيانها . وحراس الاسرى من الجنود يكتسون بملامح اسراهم لأنهم يشهدون في انفسهم صراعاً رهيباً بسبب ما سيقدمونه من وجبات طعام سائغة للطباخ

كنت افكر احياناً وانا العب الشطرنج « ترى اية كائنات صماء هذه التي احركها ؟ » فالجندي لا يتراجع ابداً . وأنا الذي ادفع به الى الامام . ما له لا يتمرد عليّ ؟ ألست انا الذي اجبره على التقدم ؟ في حين اني نفسي لا املك له حق التراجع . ومع هذا فأن ما سيبعثه الى الحياة مرة واحدة ، ما سوف يعيد اليه كرامته المهدورة هو وصوله الى آخر خط من

(١) العقيدة والشريعة في الاسلام – جولدتسيهر . راجع الفصل الخاص بالفرق الاسلامية ص (١٦٧ – ٢٢٢)

الرقعة . وهكذا ، فالأمور تنقلب دائماً في آخر لحظاتها. وهذا ما كان يبرر (لألبير كامو) ان يسعد (مسيو مرسو) في لحظة اعدامه . او على الاقل يجدد له احساسه. إذ ان ابطال (كامو) كانوا يستردون سعادتهم بوصولهم الى نهاية الحياة .

ويجول في (محنة الشمر) كذلك معنى انساني آخر ، فمشكلة العذاب فيها قائمة . ولكن القوم جميعاً يستسلمون لكائن اعلى واحد . وسواء أكان (القاضي) ام (المختار) هو الذي سيحيل (الاشمار) الى (ضحايا) فهو يخضع بدوره لقانون علوي (وذلك القانون المطلق هو الاله السماوي) . ومهما سيتعذب (شمر) او (منفى) او (مجدل) او (سنان) او (حرمله) فهم يستسلمون معذبين نادمين . وهذا ما يتجلى بوضوح في موقف (حولى) فهو يفزع الى ربه متضرعاً نادما . وهنا تعود المأساة بشكل اشد عنفاً. فالانسان في اللوحة يصدع بقانون علوي ، والانسانية لا تكاد تكشف عن (حريتها) بعد . وهذا هو الطابع الحقيقي والعلامة الفارقة لطريقة التفكير الشرقي ونقطة الضعف في كيانه معاً .

★

واللوحة مرسومة باربعة صفوف متكررة (والتكرار هنا قيمة بارزة في التقنية) واشخاصها في بعض الحالات خاضعون لقانون (المنظور التكراري) وخاضعون في اماكن اخرى لمنظور خاص يفترض وضع الاشخاص القريبين في اسفل اللوحة والبعيدين في اعلاها . في حين ان طريقة (المنظور الجوي) واضحة في طريقة رسم جدران المعتقل .

ترى اهناك مغزى لكل هذا ؟ ام هو محض مصادفة من ارتعاشات كف بدائية ودماغ مشحون بالاساطير ..؟ لعل ثمة دراسة معينة لهذه المشكلة بالذات تجلو هذا التساؤل . ومع ذلك فان من الطبيعي ان يكون حضور السجن المعماري في ذهن الرسام هو الذي يملي عليه المنظور الجوي . فالعمارة لا تتشكل في منظور آخر. اما اللجوء الى المنظورين التكراري والتسطيحي (وهو المنظور الذي يعبر عن نفسه في ترتيب الاشخاص من حيث ابتعادهم واقترابهم من اسفل اللوحة) فلا يمليه سوى اهمية الشيء الأقرب بالنسبة للفنان . والرعيل الاول بالطبع هم من جبابرة المحنة .. (الشمر) و (منفى) وسواهم .

ولعل التلوين هو العنصر التعبيري الاول في هذه اللوحة لقد كان (فان جوخ) مثلاً يعبر خلال اللون عن عواطفه فليس اللون لديه وسيلة للاشارة بل للتنفس عن المشاعر اما رسام (دار الانتقام) فألوانه بدورها تعبير عن شيء . ولكنه شيء غائب فهو لم يضع اللون البنفسجي هنا والاحمر هناك (وهما من الالوان الرئيسية في اللوحة) لكي يعبر عن عواطفه الآنية كما كان فان جوخ يعبر عنها . ولكن يعبر عن عواطف ومشاعر ولا مشاعر ممتازجة متشابكة تتخذ نواة لها وتتمركز حول (مأساة الحسين وذويه) فهي اذن اداة تعبيرية شاملة لا تمثل احزان او آمال انسان فردي بل تمثل احزان وآمال انسان اجتماعي ذي وعي شعبي ، يشعر بالاسى ويعبر عنه كما يشعر ايضاً بالرثاء والانتصار للعدل فيصوغ ذلك كله خلال التلوين . فمواطفه ان صح التعبير عواطف شعبية شاملة . لماذا اذن تلك المسحة المظلمة من الجو ..؟ ولماذا ذلك اللون الاحمر الصارخ بين احزان الالوان البنفسجية والسمراء ؟ والواقع ان جو (السبايات) نفسها يتلون بمثل هذه الالوان التي يصنعها امامنا الرسام على الفطرة . ومع ذلك فالفنان هنا لم يلتزم التعبير اللوني (سواء عن قصد او دون ما قصد) حتى النهاية فلديه يؤدي التلوين وظيفة الخط والظل والضوء تماماً في الاشارة الى الاشياء. فاللون الاحمر مثلاً لا بد وانه يشير الى الدماء مثلما يزخر اللون الاسمر بموطىء النعال. ولعل اي رسام آخر يمتلك عواطف هذا الرسام الشاملة لو حاول ان يرسم لعبر بالالوان تعبير مقارباً في جوه لهذه اللوحة . مقارباً فحسب .

المملكة (اربشكيكال) والاله (نرجال). (مالك خازن النار). (شمر ذو الجوشن) ، واخيراً لاعب الشطرنج الماهر. و(جزار الحارة) . جميعهم ادوات على رقعة واحدة. فهم يمثلون ابداً جانباً سلبياً من السلطة . شخصاً متمرداً من اجل قضية باطلة في حين لا تزال ضحيته ترسم شكل فراشة كبيرة في الفضاء.

ثمة قوى تبدو لأول وهلة وهي لا تمتلك سوى قواها السحرية للتعبير عن نفسية الطبقة الشعبية وعوالمها الاسطورية . غير ان هذه (القوى) . هذه (الصورة) او (التميمة) او (القصيدة) او (القطعة الزخرفية) هي في الواقع اداة سعيدة لتلوين تراث الجيل الروحي والمادي معاً. هي الحقل الذي لا يغل (الحصيد) بل يجمع ما بين التربة والمناخ واليد العاملة والسوق المحلية وآلة الحرث وكوخ الفلاح وغنائه الليلي وبؤس زوجته واحلامه وخوار بقراته وعبث اطفاله. يجمع بين كل هذه المظاهر المتنوعة في حقيقة (برة) القمح المحصودة .

انها اداة بريئة لوضع الحياة وضعاً جديداً .

شاكر حسن سعيد

من جماعة بغداد للفن الحديث